

## فن الدفاع عن النفس

لست أعني الكارثية أو أيّ شكلٍ من أشكال الدفاع الجسدي عندما أتحدث هنا عن الدفاع عن النفس، ولكنني أعني الدفاع عن الكيان الفكري والإنساني والأدبي والفني، عن الإنجازات، عن الرأي.. عن كل ما يمكن الدفاع عنه بالكلمات المنطقية المفحمة، وليس بالعضلات..

إحدى حلقات الكوميدي الأمريكي بيل كوزبي القديمة تناولت هذه الفكرة إلى حدٍ ما.. كيف تفحم من يتعامل معك بقلة أدب خفية، مثلاً تنظر زوجة الأخ المتغترسة إلى البطلة بأنف مرفوع وابتسامة صناعية وتقول: "ارتدي يا عزيزتي فستانك الأزرق الجميل الذي ترتدينه في كل احتفال منذ عشر سنين." فترد عليها هذه بأنفٍ لا يقل ارتفاعاً قائلة: "تستطيعين أن تلبسي فستانك القديم ما دمت محتفظة برشاقتك."

ويُفرد الأبيشي باباً في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) لـ"الردود المسكتة" ويتوج عليها الردود الهاشمية كما وصفها ويورد عليها أمثلة لردود الحسن والحسين رضي الله عنهما منها أن أحدهم جلس يتفاخر على الحسن عليه السلام وقتاً طويلاً محاولاً أن يجعله يبدو أقل أهمية منه وهو صامتٌ إلى أن أذن للصلاة ووصل المؤذن إلى التشهد قائلاً: "أشهد أن محمداً رسول الله" فوقف الحسن رضي الله عنه وقال للرجل: "جد من هذا؟" ثم تركه وذهب.

والتطاول أو التجرؤ الذي يقترب من الوقاحة في زمننا هذا من مصادره بعض الصحفيين والمذيعين الذين أصبح الاستفزاز لديهم قبل المصداقية والضمير والمادة الجيدة. ولا يغيظني شيءٌ مثل تطاول الإعلامي على الشخصية التي يحاورها وعجز الشخصية عن الدفاع عن نفسها كما يجب. مثلاً لم تعجبني إجابة كاظم الساهر عندما تلقى سؤالاً سخيفاً من أحد الصحفيين. قال له المحاور: "عندما غنى عبد الحلیم حافظ لنزار قباني فإنه خدم شعر نزار وقدمه للجمهور أما أنت عندما غنيت لنزار فقد خدمك شعر نزار، ما ردك على هذا؟" لا أذكر تماماً ما قاله كاظم إلا أن إجابته لم تكن بحجمه كفنان اكتسح الساحة الغنائية العربية كلها بصوته الأسطوري، وإنما أتت ضعيفة وتعبر عن الصدمة ولا تمسح بالإهانة كما يجب، مع أن السؤال مليء بالثغرات التي كان من الممكن استغلالها لأنها افتترضت أن نزار لم يكن معروفاً قبل أن يغني له عبدالحلیم، وأنكرت أن كاظم الساهر أوصل شعر نزار من أوسع أبواب الفضائيات والأشرطة

والسيدات إلى شريحة أكبر بكثير من الشريحة التي كانت تقرأ له حتى بعد أن غنى له عبدالحليم. ومع ذلك لم يحسن كاظم الدفاع عن نفسه لأنه فوجيء بالطعنة وهو غير مهياً لها..

وكذلك سأل مذيع سمير غانم يوماً لماذا يمثل أفلاماً "تافهة" لا تجد لها صدىً إلا في أوساط معينة، فما كان من سمير إلا أن ابتسم ابتسامة صفراء وقال ما معناه إنه يعرف أنها تافهة إلا أن لها جمهورها، وهذه إجابة لم تحط من قدره هو كفنان كبير وهب خاصية إضحاك مميزة فحسب وإنما حطت أيضاً من قدر جمهوره العريض، وهي إجابة لم تحمه من لكمة المحاور وإنما جعلته يبرز لها صدره ويتلقاها هو وجمهوره باستسلامٍ شديد.. ماذا حدث لرسالة الضحك من أجل الضحك وفلسفة الضحك؟

كل ما في الأمر أننا نفاجأ بالطعنة فتنفذ إذا لم نكن قد حصنا أنفسنا بالثقة بالنفس وحسن تقدير الذات. حتى البديهة يمكن تدهيها، ويمكن للمرء أن يتقي الطعنات (بالإضافة إلى درع الثقة بالنفس) بأن لا يستبعدها من أيّ إعلاميّ بل أن ينتظرها حتى إذا أتته كالقذيفة ابتسم ابتسامة المتوقع ورد عليها بكل ما يستحقه الأمر من برود. هذا هو فن الدفاع عن النفس الذي قد نحتاجه أحياناً أكثر من الكاراتيه والتايكوندو!

د. خليل خليفة

نشر هذا المقال بمجلة الصدى الإماراتية عام ٢٠٠٢م